الفصل الثالث

الأفكار والمفاهيم

كما يتميز المجتمع المسلم بعقائده وشعائره ، يتميز كذلك بأفكاره ومفاهيمه وتصوراته .

فالمجتمع المسلم تسوده أفكار ومفاهيم تحدد وجهة نظره إلى الأشياء والأحداث والأشخاص والمواقف ، والقيم والعلاقات . فهو يحكم على هذه الأمور كلها من زاوية الإسلام ، وهو لا يستمد حكمه ، ويستقي وجهة نظره إلا من مصادر الإسلام النقية ، المصفاة من الشوائب والزوائد ، التي تمثل رواسب العصور ، وتؤكد التحرر من غلو الغالين ، وتقصير المقصرين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين .

لقد حرص الإسلام منذ طلوع فجره على أن يصحح مفاهيم أبنائه ، حتى تستقيم نظرتهم إلى الأمور والمواقف ، ويتحد تصورهم العام للأشياء والقيم . فلم يدعهم لشطحات الفكر ، ولا انحرافات الهوى ، فيزيغوا عن القصد ، ويضلوا عن سواء الصراط ، وتتفرق بهم سبل الباطل عن سبيل الحق .

ولهذا دأب القرآن ، كما دأبت السُّنَّة ، على تصحيح المفاهيم المغلوطة والأفكار الخاطئة ، والتصورات المنحرفة ، التي تشيع في أذهان الناس .

فهم بعض الأعراب أن الإيمان مجرد إعلان وتظاهر ، فنزل القرآن يصحح هذا المفهوم ويقول : ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ . . . ﴾ ، إلى أن قال : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ (الحجرات: ١٤-١٥) .

وأشاع بعض أهل الكتاب من اليهود : أن البر أو التقوى هو الاهتمام برسوم معينة ، وشكليات خاصة ، ولهذا أقاموا الدنيا وأقعدوها حين تحول الرسول ﷺ من بيت المقدس إلى الكعبة ، وجعلها الله له قِبلة ، فنزل القرآن يبين حقيقة البر والتقوى والدين الحق فقال : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾

(البقرة:١٧٧).

وحسب بعض الناس أن طريق الإيمان إلى الجنة مفروش بالأزهار والرياحين ، لا فتنة فيه ولا اضطهاد ولا عذاب ، فنزل القرآن يدرأ هذا الوهم ، ويخطئ هذا الفهم إذ يقول : ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾

(العنكبوت:١-٣) .

ويقول : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾(آل عمران:١٤٢) ، ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (البقرة:٢١٤) .

وتصور بعض الناس أن مَن قُتِل في سبيل الله قد مات ، كما يموت الآخرون من البَشر فينفي القرآن هذا الحسبان ، ويضع مفهومًا جديدًا إذ يقول : ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ (البقرة:١٥٤) ، ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾

(آل عمران:١٦٩).

ومن الناس مَن يحسب أن التغيير المادي سبب التغيير في عالَم النفس ، فيقرر القرآن عكس ذلك ، ويبين أن التغيير الروحي والمعنوي هو الأصل والأساس : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد:١١) .

ويصحح القرآن فكرة الناس عن الفوز والفلاح والخسران ، فينقلها من دائرتها الضيقة في عقول جماهير الناس : الدائرة المادية الدنيوية العاجلة إلى دائرة أرحب وأخلد وأبقى ، فيقول : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ (آل عمران:١٨٥) ، ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ (المؤمنون:١-٢) ، ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ (الأعلى:١٤-١٥) ، ويقول : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (الزمر:١٥) .

ويظن فريق من البَشر أن النساء شياطين ، خلقن لغواية الرجال ، وأن المرأة لعنة مجسمة ، وفتنة تمشي على الأرض ، فينفي القرآن هذا الظن ، ويقول : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الروم:٢١).

ويعتقد فئة من الناس أن الظلمة والنور أثران لإلَهين مختلفين يصطرعان حتى تكون الغلبة في النهاية لأحدهما ، فيبين القرآن أنهما أثران لخالق واحد وإلَه واحد ، ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ (الأنعام:١) ، ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ (النبأ:١٠-١١) ، ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝٧١ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (القصص:٧١-٧٢)

وهكذا ظلَّ القرآن الكريم (٢٣) عامًا يبين الحقائق ، ويكشف الأباطيل ، ويصحح التصورات والمفاهيم .

وجاءت السُّنَّة النبوية فكانت البيان والتفسير ، النظري والعملي للقرآن ، وظلّ الرسول الكريم ﷺ يصحح ويوضح ، ويبني ويهدم ، حتى استقام للمجتمع المسلم تصوره ، واتضحت مفاهيمه ، وأصبح على بيِّنة من ربه ، وبصيرة من أمره ، كما خاطب الله تعالى رسوله ﷺ : ﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾(يوسف:١٠٨)، ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام:١٦١) .

وصحح النبي ﷺ مفاهيم كثيرة جدًا لعل أهمها مفهوم الإيمان ، فليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدَّقه العمل :

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[١] ، « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئتُ به »[٢] ، « ليس بمؤمن مَن بات شبعان وجاره جائع »[٣] ، « الإيمان بضع وسبعون شُعْبة ، والحياء شُعْبة من الإيمان »[٤] .

إلى أحاديث كثيرة جمعها أحد الأئمة (البيهقي) في مؤلَّف ضخم باسم (شُعَب الإيمان) .

ويضع الإسلام مفهومًا جديدًا في قبول الأعمال ، فيربطها بمقاصدها ونياتها الباعثة عليها ، ويجعل موضع نظره هو القلب لا الجوارح : « إنما الأعمال بالنيات ،

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (١٣) ، ومسلم (٤٥) ، كلاهما في الإيمان ، عن أنس .

(٢) رواه البيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (٢٠٩) ، والبغوي في شرح السنة (٢١٣/١) ، عن عبد الله بن عمرو . قال النووي في الأربعين النووية (٤١) : حديث حسن صحيح . وقال ابن حجر في الفتح (٢٨٩/١٣) : رجاله ثقات .

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد (١١٢) ، والطبراني في الكبير (١٢٧٤١) ، وأبو يعلى (٢٦٩٩) ، عن ابن عباس . وصححه الضياء في المختارة (١٢٢) . وقال الهيثمي في المجمع (١٣٥٥٥) ، والمنذري في الترغيب (٣٨٧٥) : رجاله ثقات .

(٤) متفق عليه : رواه البخاري (٩) ، ومسلم (٣٥) واللفظ له ، كلاهما في الإيمان ، عن أبي هريرة .

OBEIKAN.COM

وإنما لكل امرئ ما نوى»[١] ، «إنَّ الله لا ينظر إلى صوركم وأجسامكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[٢] ، «ألا إن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب»[٣] .

وبيَّن حقيقة الغنى فيقول : «ليس الغِنَى عن كثرة العرض ، إنما الغنى غنى النفس»[٤] .

وحقيقة القوة ، فيردها إلى قوة النفس ، لا إلى قوة الجسم : «ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[٥] .

وحقيقة المسكنة والمسكين ، وينفي الصورة الفاشية عند جمهور الناس عن المسكين فيقول : «ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان ، ولا اللقمة ولا اللقمتان ، إنما المسكين الذي لا يجد غنًى يُغنيه ، ولا يُفطن له فيُتصدق عليه ، ولا يقوم فيسأل الناس»[٦] .

وفي رواية : «إنما المسكين المتعفف . واقرءوا إن شئتم : ﴿ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ (البقرة:٢٧٣)»[٧] .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في بدء الوحي (١) ، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧) ، عن عمر بن الخطاب .

(٢) رواه مسلم في فضائل الصحابة (٢٥٦٤) ، عن أبي هريرة .

(٣) متفق عليه : رواه البخاري في الإيمان (٥٢) ، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩) ، عن النعمان بن بشير .

(٤) متفق عليه : رواه البخاري في الرقاق (٦٤٤٦) ، ومسلم في الزكاة (١٠٥١) ، عن أبي هريرة .

(٥) متفق عليه : رواه البخاري في الأدب (٦١١٤) ، ومسلم في البر والصلة (٢٦٠٩) ، عن أبي هريرة .

(٦) متفق عليه : رواه البخاري (١٤٧٩) ، ومسلم (١٠٣٩) ، كلاهما في الزكاة ، عن أبي هريرة .

(٧) متفق عليه : رواه البخاري في التفسير (٤٥٣٩) ، ومسلم في الزكاة (١٠٣٩) عن أبي هريرة .

OBEIKAN.COM

وبيَّن الرسول ﷺ مقياس التفاضل بين الناس أفرادًا وجماعات ، حصره في الإيمان والتقوى والعمل الصالح .

ورد المفاهيم الشائعة ، من اعتبار الزينة ، والجاه أو المال والغنى ، أو الجنس والنسب ، أو الضخامة والفخامة ، أو ما شابه ذلك من مقاييس مادية دنيوية ، « فرُبَّ أشعث مدفوع بالأبواب ، لو أقسم على الله لأبرَّه »[1] ، ورب فقير خير من ملء الأرض من غني مشهور[2] ، « ولا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى »[3] ، « ومَن بطّأ به عمله لم يسرع به نسبه »[4] ، « يأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة ، فلا يزن عند الله جناح بعوضة »[5] .

ويبيِّن الرسول ﷺ اختلال المقاييس في آخر الزمان فيقول : « يأتي على الناس زمان يقال للرجل فيه : ما أظرفه ، وما أعقله ، وما أجلده ، وما في قلبه مثقال حبة من إيمان »[6] .

أفكار الإسلام ومفاهيمه وتصوراته هي التي تعمل وحدها في المجتمع المسلم ، وتسيطر على عقول بنيه ، وتوجه أدبه وفنه ، وثقافته وإعلامه ، وتربيته وتعليمه .

فكرة الإسلام عن الإنسان ، وعن الحياة والدنيا ، وعن المال والغنى والفقر ، وعن التدين والبر والتقوى ، وعن العدل والإحسان ، وعن التقدم والتأخر ، وعن التحضر والتخلف ، وعن الزهد والقناعة ، وعن الصبر والرضا .

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٦٦٢) ، عن أبي هريرة .

(٢) معناه عند البخاري ، في النكاح (٥٠٩١) ، عن سهل بن سعد .

(٣) رواه أحمد (٢٣٤٨٩)، وقال مخرجوه : إسناده صحيح . والطبراني في الأوسط (٤٧٤٩)، عن أبي نضلة : وقال الهيثمي في المجمع : رجاله رجال الصحيح .

(٤) رواه مسلم في العلم (٢٦٩٩) ، عن أبي هريرة .

(٥) متفق عليه : رواه البخاري في التفسير (٤٧٢٩) ، ومسلم في صفات المنافقين (٢٧٨٥) ، عن أبي هريرة .

(٦) متفق عليه : رواه البخاري في الرقاق (٦٤٩٧) ، ومسلم في الإيمان (١٤٣) ، عن حذيفة ابن اليمان .

فكرة الإسلام عن الرجل والمرأة والعلاقة بينهما . . فكرة الإسلام عن الغني والفقير والعلاقة بينهما . . فكرة الإسلام عن الحاكم والمحكوم والعلاقة بينهما . . فكرة الإسلام عن الفرد والمجتمع والعلاقة بينهما .

هذه الأفكار وما شابهها يجب أن تكون هي الموجهة للمجتمع المسلم ، المهيمنة عليه ، دون غيرها من الأفكار والتصورات .

وذلك لأن أفكار الإسلام ومفاهيمه ، هي وحدها المستقاة من المصدر الإلَهي المعصوم ، فمصدرها : ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (هود:١) .

وسُنَّة رسول لا ينطق عن الهوى ، ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ (النجم:٤) .

ونتيجة لذلك كانت هذه الأفكار وحدها هي التي تتسم بالشمول والعمق والتوازن في تقويمها للأمور ، ونظرتها إلى جميع العلاقات .

ففكرة الإسلام عن الحياة هي الفكرة المتوازنة المعتدلة ، التي تجعل الدنيا مزرعة للآخرة ، وطريقًا إلى دار الخلود ، والطريق يجب ألا يشغل عن الغاية التي إليها تُشد الرحال ، ولكنه يجب أن يكون مريحًا مزدانًا بالأشجار والظلال ، حتى يهون اجتيازه بمراحله على المسافرين .

فليست هي الفكرة المتشائمة القائلة : إن الحياة لعنة ، وإن العالَم شر ، وينبغي التعجيل بفنائه بالتبتل والرهبانية ، والانقطاع عن الزواج وعن الطيبات ، كما يقول المذهب المانوي في فارس ، وكما مارس ذلك رجال الرهبانية في النصرانية ، والفقراء في الهندوسية .

وليست هي الفكرة الدهرية الملحدة ، التي مضمونها : ﴿ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ (الجاثية:٢٤) أرحام تدفع ، وأرض تبلع ، وليس وراء ذلك بعث ولا حساب ولا جزاء .

وفكرة الإسلام عن الإنسان هي الفكرة المتوازنة المعتدلة ، التي تنظر إليه على أنه مخلوق مكرّم ذو طبيعة مزدوجة ، فهو جسم وروح ، أو هو روح يسكن في غلاف من الجسم ، كما قال تعالى في خلق الإنسان الأول : ﴿ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ (ص:٧١-٧٢) .

ويجب أن يُعطي الجسم حقه ، والروح حقه في شريعة الإسلام .

فليست هي الفكرة المادية القائلة : إن الإنسان ليس إلا هذا الجسم بأجهزته وأعضائه ، بلحمه ودمه وأعصابه وغرائزه ودوافعه ، وليس وراء الجسم شيء آخر ، فهي تنظر إلى الإنسان كما تنظر إلى العالم ، فالعالم عندهم مادي ولا إلَه له ، والإنسان مادي ولا روح فيه .

وليست هي الفكرة الروحية المسرفة التي تقول : إن الجسم شر ورجس ، وإن الروح وحدها هي محل الطهر والسمو ، فلا نجاة للإنسان ولا خلاص ، إلا بتعذيب الجسم وحرمانه ، ليتسنى للروح أن تصفو وتترقى وتتزكى .

فليس بمجتمع مسلم صحيح الإسلام إذن : ذلك المجتمع الذي يشيع فيه مفهوم الحياة ، كما هو عند الغربيين ، ولا كما هو عند البوذيين .

وليس هو الذي يتصور الإنسان تصور الروحيين المتشائمين ، ولا تصور الماديين المسرفين .

وليس بمجتمع مسلم صحيح ذلك الذي يفهم التقوى على أنها ثياب ترقع ، ولحية تعفى ، ومسبحة تدار في اليد . . وإن لم يكن وراءها علم نافع ، ولا قلب خاشع ، ولا عمل صالح .

وليس بمجتمع مسلم ذلك الذي يفهم التدين على أنه مجرد أداء الشعائر من صلاة وصيام وحج وعمرة . . وإن كان يتعامل بالربا في تجارته ، أو يدع المرء فيه زوجته مكشوفة الذراعين والساقين ، أو يدع أولاده في مدارس التبشير والتنصير ، أو يتركهم فريسة للمربيات الكافرات أو الفاسقات .

OBEIKAN.COM

أو يرى المنكر ضاربًا أطنابه في كل مكان ، والفساد ناشرًا ظلامه على كل موضع . وهو يقول : نفسي نفسي! مغفلاً فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والجهاد لمقاومة الباطل .

وليس بمجتمع مسلم ذلك الذي يشيع فيه مفهوم العدل الاجتماعي على أنه نهب القناطير المقنطرة ، ثم التصدق بدريهمات أو دوانق على بعض الفقراء والمحتاجين ، مما جعل بعضهم يفهم خطأ عدالة الإسلام فيطلق عليها اسم (اشتراكية الصدقات)!

وليس العدل أيضًا هو نهب الأموال المملوكة ـ مِلْكية مشروعة من أصحابها الأغنياء ـ بزعم إعطائها للفقراء ، وإن لم يصل إلى الفقراء منها نقير ولا قطمير ، فهذا المفهوم ـ كذلك ـ للعدل الاجتماعي مفهوم خاطئ دخيل على فكرة الإسلام .

وليس بمجتمع مسلم ذلك الذي ينظر إلى الفقر والغنى نظر الصوفي القائل : إذا رأيتَ الفقر مقبلاً فقل : مرحبًا بشعار الصالحين ، وإذا رأيتَ الغنى مقبلاً فقل : ذنب عجلت عقوبته!

وليس بمجتمع مسلم ذلك الذي ينظر إلى المرأة على أنها أحبولة الشيطان ، وأخت إبليس ، وأنها هي التي أخرجت آدم من الجنة ـ كما تزعم التوراة ، وكما يعتقد اليهود والنصارى ـ وكما يظن للأسف كثير من المسلمين بحكم الثقافة المسمومة التي تلقوها في المدارس أو من أجهزة الإعلام .

وليس هو أيضًا الذي يشيع فيه ذلك المفهوم الخاطئ عن مساواة الرجل بالمرأة مع أن فطرة الله خالفت بينهما ، وجعلت للرجل القوامة ، والمسئولية : ﴿ **ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ** ﴾ (النساء: ٣٤) .

إن الأفكار والمفاهيم التي تشيع في المجتمعات المنتسبة إلى الإسلام اليوم ألوان وأنواع شتَّى :

(أ) **بعضها من بقايا القيم والتعاليم الإسلامية الصحيحة** ، التي لا يزال لها أثرها في كثير من الأنفس والعقول ، وخصوصًا بعد أن قام للإسلام دعاة واعون في بلاد

شتّى ، يشرحون رسالته شرحًا يرد إليها فطريتها وشمولها ، ويدرأ الشبهات عنها .

(ب) وبعضها من رواسب العصور الأخيرة التي تخلّف فيها الفكر الإسلامي في مختلف المجالات ، ففقد الأصالة والإبداع ، وأغلق باب الاجتهاد ، وأصيب المسلمون بسوء الفهم للإسلام ، كما ابتلوا بسوء التطبيق له كذلك .

(ج) وبعضها من الروافد الأجنبية التي زحفت على ديار الإسلام ، مع الاستعمار ، الذي كان أكبر همه أن يغير أفكار المسلمين وتصوراتهم وأذواقهم ، ليسهل عليه بعد ذلك ليّ زمامهم إلى الوجهة التي يريد .

وواجب المجتمع المسلم أن يطارد كل المفاهيم التي لا تستمد من الإسلام الصحيح ، سواء أكانت من رواسب التخلف والانحراف عن الإسلام ، أم من الأفكار الغازية الوافدة مع المستعمر الغربي .

فمن النوع الأول فكرة كثير من المسلمين ، في كثير من الأقطار عن المرأة وعلاقتها بالرجل ، ونظرتهم إليها باعتبارها مخلوقًا ناقصًا أو خطرًا ، يجب أن تظل حبيسة البيت حتى يؤويها القبر ، لا ترى رجلاً ، ولا يراها رجل ، ولا تخرج لعبادة أو عمل صالح أو علم نافع .

ومن النوع الثاني فكرة كثير من المسلمين ، العصريين الذين تثقفوا بثقافة الغرب ، بطريق مباشر أو غير مباشر ، فاعتبروا خروج المرأة على فطرتها ووظيفتها ، من الحقوق المشروعة ، ويعدون اختلاطها بالرجال الأجانب ـ بغير قيد ولا تحفظ ـ من الحرية المطلوبة . ويعتبرون القول بغير ذلك ضربًا من الرجعية في التفكير ، والتطرف في السلوك! والأفكار الأجنبية الدخيلة الآن هي التي تغلب وتسود لدى جمهور المتعلمين من خريجي الجامعات وغيرها .

ومن أخطر المفاهيم التي لقنها إياهم الغزو الثقافي هو : مفهوم (الدين) كما يتصوره الغربيون .

فمفهوم الإسلام عن (الدين) دائرته ومداه ، غير المفهوم السائد عند الغربيين حتى المتدينين منهم ، إنه عندهم مجرد علاقة بين ضمير الإنسان وربه ، لا علاقة له بشؤون الدولة وأنظمة المجتمع ، ولهذا قامت الحياة الحديثة هناك على أساس الفصل بين الدولة والدين .

أما الإسلام فهو في نظر المسلمين منهج شامل ينظم شؤون الحياة كلها : من قضاء الحاجة إلى قيام الدولة ، ومن أدب الأكل والشرب إلى نظام الاقتصاد وسياسة الحكم ، ومن الصلاة والصيام إلى شؤون الحرب والسلم والعلاقات الدولية .

والشريعة الإسلامية هي الحاكمة على جميع أفعال المكلفين ، لا يخرج قول ولا عمل عن سلطانها ، وكل عمل صادر عن مكلَّف لا بدَّ أن تعطيه الشريعة حكمه من الوجوب ، أو الاستحباب ، أو الحرمة ، أو الكراهة ، أو الإباحة . ومهمة الشريعة هي إخراج المكلّف ، من اتباع داعية هواه إلى التقيد بأحكام الله .

ومصادر الشريعة فيها الوفاء كل الوفاء بتغطية جميع الوقائع والأحداث التي تمر بالبَشر ، بحسب ما احتوت من أصول وقواعد ونصوص ، ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل:٨٩) .

وقد كان الواقع التطبيقي للإسلام شاهدًا على صحة هذه الفكرة ، فكان الرسول ﷺ هو المبلِّغ عن الله ، والقائم بأمر الدين ، وهو إمام المسلمين ورئيس دولتهم ، والقاضي في خصوماتهم ، ولم يكن معه ملك أو حاكم يقوم بأمور السياسة ، كما كان يحدث ذلك في بني إسرائيل الذين قالوا لنبيهم : ﴿ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ . . . وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾

(البقرة:٢٤٦-٢٤٧).

وكان الخلفاء الراشدون بعد رسول الله ﷺ هم أئمة المسلمين في الصلاة ورؤساؤهم في الإدارة والسياسة ، وكذلك كان مَن بعدهم من خلفاء بني أمية والعباس .

OBEIKAN.COM

ولهذا عرّف العلماء الخلافة بأنها : نيابة عامة عن رسول الله ﷺ في حراسة الدين وسياسة الدنيا به .

وهذا المفهوم الإسلامي الصحيح عن (الدين) يجب أن يسود ويشيع في المجتمع المسلم ، حتى يمكن بعدها محاكمة كل مسلم إلى دينه الذي التزمه وآمن به ورضيه الله له ، ورضيه لنفسه ، ويمكن بعدها قياس كل الاعتبارات والتصورات والأقوال والأعمال بمقياس الدين ، الذي لا يخطئ ولا يضل ولا ينسى .

- **نوعان من المفاهيم هما خطر على المجتمع :**

والمجتمع المسلم اليوم يجب أن يتحرر من نوعين من المفاهيم الدخيلة عليه ، سيطر كل نوع منهما على عدد من الناس : بعضها سيطر على العامة ، والآخر سيطر على الخاصة ، أو النخبة .

النوع الأول : المفاهيم التي دخلت على الإسلام وعلى مجتمعاته في عصور التخلف وسوء الفهم للإسلام .

مثل المفاهيم التي شاعت وسادت عن التوكل بأنه التواكل ، وعن الزهد بأنه ترك الحياة لغير المؤمنين ، وعن الإيمان بالقدر بأنه ضرب من الجبرية ، وعن الفقه بأنه نقل ما قاله الأقدمون ، وعن الاجتهاد بأنه باب قد أغلق ، وعن العقل بأنه نقيض النقل ، وعن المرأة بأنها أحبولة الشيطان ، وعن بَركة القرآن أنها في تعليقه للحفظ من العين أو من الجان ، وعن بَركة السُّنَّة أنها في قراءة البخاري عند الأزمات ، وعن الأولياء والكرامات وما شاع حولها من اعتقادات وأفكار تناقض سنن الله في الأنفس والآفاق .

إلى غير ذلك من المفاهيم التي سادت في زمن الركود العلمي ، والجمود الفكري ، والتقليد الفقهي ، والاجترار الكلامي ، والانحراف الصوفي ، والاستبداد السياسي ، والانتكاس الحضاري .

والنوع الثاني : المفاهيم التي زحفت على مجتمعاتنا ، مع زحف الاستعمار ، فدخلت من بابه ، وسارت في ركابه ، واحتمت بجنابه ، واتخذت الغرب لها قِبْلة وإمامًا ، ولم يكن لنا بها عهد ولا خطرت لنا ببال .

إنها المفاهيم المتعلقة بالدين والدنيا ، والرجل والمرأة ، وبالفضيلة والرذيلة ، بالتحرر والجمود ، وبالتقدم والرجعية ، وبالحلال والحرام .

المفاهيم المتعلقة بالحدود الفاصلة بين حرية الفكر وحرية الكفر ، بين حرية الحقوق وحرية الفسوق ، بين العلمية والعِلمانية ، بين الدولة الدينية والدولة الإسلامية .

إنها مفاهيم الغزو الفكري ، التي تعتبر الإيمان بالغيب تخلفًا ، والتمسك بالسلوك الديني تزمتًا ، والدعوة إلى تحكيم الشريعة تطرفًا ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تدخلاً في شؤون الآخرين ، واختلاط الرجل بالمرأة ـ بلا قيود ـ تحررًا ، وعودة المرأة المسلمة إلى الحجاب الشرعي رجعية ، والانتفاع بالتراث تعصبًا ، واعتبار علماء الدين حُرّاس التخلف ، ودعاة (التغريب) أعلام (التنوير) .

والواجب على الدعاة والعلماء والمفكرين الإسلاميين أن يقدموا الأفكار والمفاهيم الشرعية الإسلامية الصحيحة الأصيلة ؛ لتحل محل الأفكار والمفاهيم الغريبة الدخيلة ، سواء دخلت قديمًا أم حديثًا . فكلتاهما لا تمثل الإسلام الصحيح : الأفكار القديمة المتعفنة ، والأفكار المستوردة الغازية المدمرة ، أو بتعبير الأستاذ مالك بن نبي : الأفكار الميتة ، والأفكار المميتة .

ومن ناحية أخرى إذا نظرنا إلى القضية في ضوء الوسطية والتطرف ، فعلينا أن نتبنى مفاهيم التيار الوسطي ، الذي تحدثنا عنه في كتب أخرى ، ونرفض التطرف ، سواء أكان إلى الغلو والإفراط ، الذي تمثله بعض الفصائل الإسلامية أم إلى التقصير والتفريط الذي تمثله الشرائح العلمانية والمتغربة في أوطاننا ، وهي متفاوتة في تأثرها بالعلمانية والتغريب ، بعضها قريب جدًّا ، وبعضها بعيد جدًّا ، وبعضها بين بين .

لقد ذكرت ثمانية عشر مفهومًا أساسيًّا عن الإسلام في كتابي (الإسلام والعلمانية) أردت بها تحديد ملامح الإسلام الذي ندعو إليه ، حتى لا يزعم زاعم أننا ندعو إلى إسلام غامض ، أو مجهول ، أو (هلامي) قابل لأن يفسره مَن شاء كما شاء !

وقدّمت مجموعة إسلامية مستنيرة رؤية إسلامية معتدلة صاغها الأستاذ الدكتور أحمد كمال أبو المجد ، وأنا موافق عليها في جملتها ، وإن كنت قد أخالف في بعض التفصيلات .

وهذا الكتاب ذاته يقدم ملامح عن المجتمع المسلم الذي ننشده في ضوء مفاهيم المدرسة الوسطية التي تؤاخي بين العقل والنقل ، وتربط بين الدين والدنيا ، وتوفق بين محكمات الشرع ومقتضيات العصر ، وتوازن بين الثوابت والمتغيرات ، وتجمع بين السَّلَفية والتجديد ، وتستلهم الحاضر ، وتستشرف المستقبل ، وتؤمن بالانفتاح في غير ذوبان ، والتسامح في غير تهاون .

* * *

OBEIKAN.COM